العراق: الاحتلال سلما أم حربا؟

الدكتور عبد الستار قاسم

2003/2/13

يبدو من خلال النشاطات الدولية الدائرة حول العراق أن العراق أمام خيار واحد، إن استطاع المجتمع الدولي، وهو الاحتلال. إنما وسائل الاحتلال تختلف وكذلك الجهة التي تحتل. يطرح الأمريكيون الحرب وسيلة فيكونون بذلك هم المحتلون، ويطرح الأوروبيون الوسائل السلمية على أن تكون الدول الكبرى في مجلس الأمن هي المحتل بنوع من الهيمنة الأمريكية. تتجه قلوب أغلب دول العالم بما فيها الدول العربية والإسلامية نحو الحل اللاعنفي الذي يُخضع العراق تماما لإرادة الولايات المتحدة من خلال هيئة الأمم المتحدة ، بينما تتجه عصي دول قليلة على رأسها الولايات المتحدة نحو الحل الحربي.

لا شك أن الحل الحربي سيؤدي إلى الكثير من الدمار والقتل وسفك الدماء. مصانع ومعامل ومزارع عراقية سيتم تدميرها وآلاف من الأنفس وربما الملايين ستزهق. ستكون الخسائر العراقية هائلة جدا وضخمة وستحيل الجهود البنائية العراقية إلى دمار. أما الحل السلمي فسيكون ناعما وسيتحاشى التدمير بقدر الإمكان، ولن يعمل على قتل الأنفس. دماء كثيرة سيتم حقنها بالحل السلمي ومعامل ومنشآت وقصور كثيرة ستنجو من الدمار والخراب.

لكن هناك فرقا هاما جدا من المفروض أخذه بالحسبان وهو أن نتيجة الحل السلمي معروفة سلفا ومضمونة ويتوقعها الجميع تأكيديا، أما نتيجة الحل الحربي متوقعة وإنما بصورة غير تأكيدية. أي أن الحرب قد لا تؤدي بالتأكيد إلى انتصار أمريكي حاسم يضمن للولايات المتحدة النتائج التي تبغيها، أما الحل السلمي فلن يكون احتماليا. سيكون الحل السلمي بموافقة العراق على الرغم من بعض العقبات التفاوضية التي قد تعترض سبيل التطبيق.

ذيول الحرب

هناك عدة ذيول محتملة للحرب أذكر منها:

1- لا تعرف الولايات المتحدة تماما عن الرد العسكري العراقي إذا دارت الحرب، على الرغم من أن درجة التوقع عالية في أن العراق لن يكون بمقدوره خوض حرب إليكترونية أو نظامية ناجحة. من المتوقع عدم قدرة العراق على إلحاق خسائر كبيرة في الجانب الأمريكي إذا بقيت الأزرار هي التي تدير الحرب. أخفق العراق حتى الآن في إسقاط الطائرات المعادية التي تجوب سماءه وليس من المتوقع أن تحصل مفاجآت بهذا الشان خلال الحرب.

2- من المحتمل أن العراق استطاع تطوير سلاح أو أسلحة ما عبر هذه السنوات واستطاع إخفاءها. وقد بدا واضحا من خلال تقرير وزير الخارجية الأمريكي أمام مجلس الأمن أن قدرة أمريكا الاستخبارية في العراق ضعيفة جدا وأن العراق محصن من الناحية الاستخبارية إلى درجة كبيرة جدا. لم يستطع وزير الخارجية تقديم معلومات ذات قيمة عالية أمام المجلس واعتمد إلى حد بعيد على طرف ثالث غير موثوق أو على الأقمار التجسسية التي تعطي ما في الظاهر وتعجز حديا عن إعطاء معلومات عما في الباطن.

هل طور العراق سلاحا قويا أو تكتيكا فعالا؟ ربما. إذا فعل وتحدى الولايات المتحدة فإن شدة الحرب ستزداد وستزداد معها الخسائر في الأنفس والمنشآت. سيضع هذا الولايات المتحدة في مواقف حرجة خاصة أمام الشعب الأمريكي الذي يفكر حتى الآن بأن الحرب ستكون لعبة أتاري وسرعان ما ستنتهي.

3- من المحتمل ألا تدخل القوات الأمريكية أرضا بلا شعب يقاوم. هناك رهان أمريكي بأن الشعب العراقي يكره قيادته وينتظر يوم الخلاص منها حتى لو كان على أيدي الولايات المتحدة. التوقع الأمريكي منطقي خاصة أن الأنظمة العربية لم تترك لها حيزا عند شعوبها واتبعت سياسات مسيئة جدا للشعوب ومصالحها. لا يختلف النظام العراقي عن الأنظمة العربية إن لم يكن قد مارس قمعا أشد وطأة ضد العراقيين على مختلف مشاربهم. فهل سيقف الشعب العراقي مرحبا بالغزاة الأمريكيين أم أنه سيفكر بكبريائه الوطني واستقلاله وسيادته على أرضه؟ من المنطقي أن يقف العراقيون دفاعا عن أرضهم وشرفهم، ومن المنطقي أيضا أن يقفوا متشفين بنظام لم يمنحهم الدرجة المطلوبة من الحرية. من الصعب الحكم الآن حول أي المنطقين سيسود، علما أن آمال الأمة تتجه نحو وقفة شعبية شجاعة في مواجهة العدوان.

(لو) تبصر النظام العراقي قليلا لفتح باب التطوع أمام العرب والمسلمين. سيردف المتطوعون مقاومة أهل العراق وسيكونون رأس حربة في مواجهة العدو إن وجد العراقيون في المقاومة ثقلا كبيرا. لا يوجد لدى المتطوعين العرب والمسلمين ثأرا مباشرا مع النظام العراقي، ولم يكونوا أصحاب مصالح شخصية. سيأتي أغلبهم من أوساط إسلامية تؤمن بالجهاد في سبيل الله ولا يردهم عن القتال إلا النصر أو الشهادة. هؤلاء هم درع الأمة وهم الذين يقاتلون دفاعا عن الأمة مرضاة لله. هل لدى النظام العراقي الاستعداد لقبولهم على أرض العراق؟ أعتقد أنه لا خيار أمام النظام إن أراد مقاومة فعالة وماسكة بالمبادرة القتالية.

أما إذا لم يفتح النظام الباب أمام المتطوعين، فإنه من المتوقع تدفقهم إلى العراق بعد الغزو الأمريكي. إنهم سينالون في هذه الحالة من الأمريكيين لكن مهمتهم ستكون أكثر صعوبة مما لو كانوا متواجدين أصلا في المواجهة. إذا نشبت المقاومة داخل المراكز السكانية فإن أوقات الأمريكيين ستكون عصيبة بخاصة أن رئيسا أهوج يقودهم ولا يقوى على اتخاذ القرارات المتزنة والمتوازنة.

4- من المحتمل أن يؤدي الحل الحربي إلى حرب عراقية داخلية. من الوارد أن تشجع الولايات المتحدة المنافسات العسكرية العرقية والدينية والسياسية. هناك شيعة وسنة وأكراد وعرب ومؤيدون ومعارضون وجميعهم يتحفزون لإثبات الذات. لم يحسن النظام العراقي التعامل مع مختلف الفئات بحيث يحقق وحدة وطنية على اتساع الوطن، واستغل الآخرون بمن فيهم إسرائيل الأوضاع لإشعال الفتن ولاستنزاف طاقات العراق.

ستستغل الولايات المتحدة زعزعة الأوضاع العراقية بالمزيد ومن المحتمل أن تشعل حروبا داخلية بالطريقة التي تخدم مصالحها. من المحتمل ألا تلجأ إلى تقسيم العراق لأن تركيا لا تريد دولة كردية ولأن دولة شيعية تهدد مصالحها لما في وجودها من خطر على أنظمة عربية، لكنها من الممكن أن تكتفي بالسيطرة على العراق من خلال صراعات داخلية تعفيها من أن تكون دولة

محتلة في زمن لم يعد فيه الاحتلال العسكري المباشر غير مقبول. لا ترغب أي من الدول الآن أن تمارس الاحتلال المباشر وتفضل أن يكون احتلالها عبر وسائل أخرى.

5- هل سيتحرك الشارع العربي ضد المصالح الأمريكية فيهاجم الأنظمة العربية والسفارات وما شابه؟ من المحتمل خاصة أن الإهانات المتكررة التي تتعرض لها الأمة العربية تُراكم الاستياء ومشاعر الهوان التي قد تؤدي إلى الغضب. من غير اليسير أن يتكهن المرء برد فعل الشعوب الغاضب لكنه من المفروض أن يكون في الحسبان عند تقييم مختلف الخيارات. الأمة العربية مرشحة لزلزال داخلي لأسباب كثيرة منها سطوة القوى الأجنبية والمعادية بخاصة تلك التي تمارسها إسرائيل والولايات المتحدة. وقد تؤثر الحرب إن قامت على شعوب عربية يجعلها تندفع ضد أنظمة الحكم مما سيعقد الأمور للولايات المتحدة. وقد يكون سقوط نظام عربي واحد محوري في صنع السياسة العربية أهم بالنسبة للمصالح الأمريكية من سقوط النظام العراقي. لو خيّرت الولايات المتحدة بين سقوط النظام العراقي مع سقوط نظام آخر يخدم مصالحها لاختارت بقاء النظامين.

ذيول الحل السلمي

ستبرز عدة معطيات فيما إذا تم التوصل بين الدول الكبرى إلى حل سلمي لمسألة العراق أذكر منها:

1- بالتأكيد سيقع العراق تحت الاحتلال الدولي إذا استمر في الموافقة على طلبات لجان التفتيش وتطبيق قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1441. هذا قرار يجرد العراق من كل السلطات ويجعله ساحة مفتوحة تُنتهك في كل لحظة. كلام العراق وغيره حول ضرورة صون سيادة العراق في ظل التفتيش الدولي والرقابة لا يثير سوى السخرية. العراق منتهك الآن ولا سيادة له.

2- إذا تم تطبيق الأفكار الألمانية-الفرنسية والتي تناقلتها وكالات الأنباء فإن العراق سيفقد حقه في ترتيب أوضاعه الداخلية. سيكون العراق تحت الوصاية الدولية، وسيخضع أبناؤه للتحقيق وستوضع له القوانين وستظهر الحواجز العسكرية الأجنبية على الطرق بين المدن وخارج المدن، الخ. قد يتمتع العراق بحكم ذاتي وقد لا يتمتع. ترتقي الأفكار الفرنسية-الألمانية إلى احتلال مباشر لكنه ناعم ويتم تحت شعار المحافظة على منشآت العراق وحقن سفك الدماء. إنها أفكار لا تقل خطورة من هذه الزاوية عن الغزو الأمريكي الذي يرى ضرورة قلب الأوضاع العراقية بطريقة تتحول فيها العراق إلى فلك أمريكي مطيع ويمارس أعمالا ضد العرب والمسلمين.

3- ستلحق بالأمة هزيمة نفسية ومادية مرعبة يتجاوز أثرها أثر الحرب العسكرية. يطلب الحل السلمي من العراق الاستسلام طواعية تحت شعارات براقة متعددة مما سيجعل عددا من الدول والناس مرتاحين لحقن الدماء. إلا أن الفكرة التي ستأتي بعد الصحوة ستتمحور حول ذلك البلد العربي الذي حاول أن يصمد ولكنه انتهى منهارا يسلم مصيره للآخرين من الأجانب الأعداء.

تعاني الأمة الآن من هزيمة نفسية نكراء وهي ترى لجان التفتيش تجوب العراق بطوله وعرضه والعراقيين يقدمون التسهيلات، وتشاهد العلماء العراقيين يقدمون أنفسهم للمحققين. إنه أمر سيسجله التاريخ للأجيال القادمة التي ستقرأ ما كان في الأمة من ضعة وهوان.

4- يفوت الحل السلمي فرصة وضع الحكام العرب في حرج سواء كانوا مشاركين في الحرب أو مشجعين أو متفرجين. وربما يفوت على الجماهير المزيد من التأجيج وإشعال المشاعر الذي يعتبر جوهريا في مراكمة الهموم التي تقود إلى التغيير.

أعتقد أنه من المناسب أن نحصر الجدل في اختيارين هامين: يتعلق الأول بحقن الدماء ونجاة بعض صروح العراق الصناعية والرمزية من القصف مقابل استسلام عراقي يبدو لطيفا وحكيما في الوهلة الأولى؛ ويتعلق الثاني بحرب قاسية عنيفة يصعب التكهن بنتائجها على صعد المقاومة والخسائر الأمريكية والتغيير على المستوى العربي. في الأول بعض الرحمة لأناس كثر سيلاقون مصيرا صعبا فيما لو نشبت الحرب، وفي الثاني بعض الرحمة للأمة التي قد يقوم بعض أبنائها بملاقاة العدو. سيسجل الأول على الأمة هزيمة أشد قسوة من هزيمة عام 1967، وقد يسجل الثاني هزيمة مشفوعة بمحاولة لدحر العدو. ومن يدري؟ فقد تتورط الولايات المتحدة في حرب طويلة خاصة إذا فتح النظام العراقي المجال منذ اللحظة أمام القوى الإسلامية وغيرها للاستفادة من التجربة الشيشانية.